مطالعات فى التصوف الاسلامى

عوارف المعارف ـ منشأ علوم الصوفية وفضلها

— ٢ —

وقفت بك فى نهاية الفصل الماضى عند ترجمة موجزة لحياة شهاب الدين السهروردى مؤلف كتاب « عوارف المعارف » وأحب أن أقف بك فى هذا الفصل عند الباب الأول والثالث من هذا الكتاب حيث يحدثنا المؤلف عن منشأ علوم الصوفية وعن فضل هذه العلوم وما تمتاز بها على غيرها من فروع المعرفة الانسانية . ولكنى أحب قبل هذا أن أعطيك صورة عامة مقاربة لأبواب هذا الكتاب فى جملتها . يقع « عوارف المعارف » ، فى نيف وستين باباً منها المطول المسهب ومنها المختصر الموجز . وفيها القوى الدقيق المسرف فى القوة والدقة . والضعيف المهلهل الذى لا يشتمل على فكرة منظمة ولا منطق منسجم يربط أجزاءه ويلم شعث عناصره . ولكن الكتاب فى جملته خصب حقا ممتع حقا نافع حقا . وهو من هذه الناحية اقدر على أن يعطينا صورة قوية شاملة لما احتوى عليه التصوف من وجدانيات واشارات وأحوال ومقامات . ولعل من أنفع أبوابه وأوفاها هذه الأبواب التى تناول فيها المؤلف بيان منشأ علوم الصوفية وفضلها . وماهية التصوف . وسبب تسميتهم بهذا الاسم وأخلاقهم ومعرفتهم لانفسهم ومكاشفاتهم فى ذلك . وشرح الحال والمقام والفرق بينهما . تلك هى أهم الأبواب وأكثرها حظاً من الدقة والغناء . فلنترك اذاً هذا الضرب من الكلام العام لنقف عند الباب الاول الذى أبان فيه المؤلف عن منشأ علوم الصوفية . والباب الثالث الذى أظهرنا فيه على فضل هذه العلوم وذكر نماذج منها

* * *

استهل مؤلف « عوارف المعارف » الباب الاول من كتابه بهذا الحديث الشريف : « انما مثلى ومثل مابعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : ياقوم إنى رأيت الجيش بعينى وانى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء . فاطاعه طائفة من قومه فادلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا . وكذبت طائفة منهم فاصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فاهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ماجئت به ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » ثم عقب على هذا الحديث بحديث آخر هو أبلغ فى الدلالة على ما قصد اليه وهذا الحديث هو . « مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا . فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها طائفة اخاذات امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله . ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »

والغرض الذى يرمى اليه المؤلف من ايراد هذين الحديثين هو أنه يريد أن يستخلص منهما القيمة المعنوية لنفوس الصوفية والابانة عن أن هذه النفوس كانت أكثر قابلية من غيرها لما جاء به ودعا اليه من الهدى والنور رسول الله صلى الله عليه وسلم . وان حظها من صفاء السرائر ونقاء الضمائر وذكاء القلب اوفر من حظ غيرها ، فنفوس العلماء الزاهدين زكت . وسرائرهم صفت ، وقلوبهم صقلت وتهيأ لها من العلم حظ لم يتهيأ لغيرها من النفوس . وبعبارة اخرى كانت هذه النفوس كأوعية للعلوم كما قال مسروق عن اصحاب رسول الله . وقلوب الصوفية واعية لانهم زهدوا فى الدنيا بعد أن احكموا أساس التقوى . ومن هنا زكت نفوسهم بالتقوى وصفت قلوبهم بالزهد . فكانت تقواهم عونا لهم على أن تصقل مرايا سرائرهم وتجلى صفحات ضمائرهم . وكان زهدهم عونا لهم على ان ينصرفوا عن الدنيا وعلى أن يقبلوا على الدين اقبالا من شأنه ان يقربهم من الله ويوحدهم معه ويفنيهم فيه .

يأخذ المؤلف بعد هذا فى اظهارنا على مكان العلوم الصوفية بين العلوم الاسلامية الاخرى . فذكر من هذه العلوم التفسير والحديث والفقه واصول الفقه والخلاف والجدل . ثم اخذ يعرض علينا تفاسير مختلفة للاية الكريمة « انزل من السماء ماء » وانتهى من هذه التفاسير الى تطبيق مااشتملت عليه هذه الآية بالنسبة الى العلماء الذين تخصص كل منهم فى فرع من هذه العلوم التى ذكرها آنفا . ثم انتهى من هذا كله الى أن الماء الذى انزل من السماء هو العلم والى ان اوعيته هى القلوب . فمن هذه القلوب ما سال واديه بالتفسير فكان علم التفسير . ومنها ما سال بحفظ رواية الحديث وسنده وتمييز صحيحه من سقيمه فكان علم الحديث . وعلى هذا النحو من التأويل والفهم يمكنك ان تقول فى غير علمى التفسير والحديث ما قيل فى كل من التفسير والحديث ، واما علوم الصوفية فنشأت من أن نفوسهم قد احكمت اساس التقوى وزهدت فيما اشتملت عليه الدنيا من عرض زائل وزخرف حائل . فسالت اودية قلوبهم بما انصب منها من مياه العلوم التى اجتمعت فصارت هذه القلوب اخاذات .

اخذ الصوفيه حظا من علم الدراسة فأفادهم هذا الحظ من ناحية انه اظهرهم على الاحكام الظاهرة للعبادات فعلموها وعملوا بها . ثم تميزوا على غيرهم من علماء الدين بعلم آخر خاص بهم قاصر عليهم هذا العلم هو علم الوراثة . وعلم الوراثة هو علم العالم الزاهد المتقى الذى فقه الدين فقها ابان له عن قواعده واصوله بحيث يتعرف المعنى الحقيقى للدين . وليس الدين شيئا آخر غير الانقياد والخضوع فهو مشتق من الدون . وكل شيء تضع فهو دون . فعلى هذا يصبح الدين عبارة عن ان يخضع الانسان نفسه لربه وينقاد لما أمر به . وافضل مراتب العبادة الفقه فى الدين. فمن كان افقه فى الدين واعرف باصوله كانت نفسه أسرع اجابة وقلبه اشد انقيادا لمعالم الدين واصوله .

فانت ترى من هذه الملاحظات التى ذكرها السهروردى فى هذا الباب ان علم الشريعة قد انقسم الى قسمين متمايزين : قسم اختص به الفقهاء واهل الفتيا للاحكام العامة والعبادات والمعاملات . وقسم اختص به الصوفية واهل الباطن اشتمل على ما يتعلق بهم من مراقبات ومحاسبات، ورياضات ومجاهدات، واحوال ومقامات. وما الى ذلك من الأمور الكثيرة التى نراها منبثة فى تضاعيف علومهم ومعارفهم . كتب الفقهاء كتبهم فدونوا فيها الاحكام التى استخلصوها من القرآن والحديث . وكتب الصوفية كتبهم فدونوا فيها مكاشفاتهم ومواجدهم التى انتهوا اليها عن طريق القرآن والحديث . ولكن هناك فرقا بين فقه الفقهاء وتصوف الصوفية . ذلك أن الفقه هو علم الأحكام الظاهرة للعبادات والمعاملات على حين أن التصوف هو علم المواجد القلبية ، والرياضات النفسية ، والاحكام الباطنية . وإذن فقد سمى الفقه بعلم الظاهر وسمى التصوف بعلم الباطن

ويظهرنا مؤلف « عوارف المعارف » بعد ماقدم على كيفية نشأة الشر وكيف أصبحت النفس مأوى لهذا الشر وكيف امتازت نفوس الأنبياء والاولياء على نفوس غيرهم. فذكر هذه القصة التى تتلخص فى ان الله بعث جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فلما أبت بعث عزرائيل فقبضها ، وكان ابليس قد وطىء الارض بقدميه فأصبح بعضها بين قدمين وبعضها الآخر بين موضع أقدامه . ومن هذه المواضع التى مستها أقدام ابليس خلقت النفس فصارت مأوى للشر . ولكن هناك جزءاً من الارض لم تصل اليه أقدام ابليس ومن هذا الجزء أصل الانبياء والأولياء . ولما كانت ذرة رسول الله موضع نظر الله من قبضة عزرائيل لم يمسسها قدم ابليس، ولهذا لم يصبها الجهل، وانما كان رسول الله على العكس موفور الحظ من العلم، والنور، ومن هنا بعثه الله تعالى بالعلم والهدى فانتقل هذا العلم من قلبه إلى القلوب ، وانتقل هذا الهدى من نفسه الى النفوس . ومن هنا كانت العلاقة بين رسول الله وبين الذين دعاهم الى الأخذ بما بعثه الله به . وبعبارة أخرى كانت هذه العلاقة بنسبة طهارة الطينة . فمن كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كانت نفسه أكثر استعدادا لقبول ماجاء به رسول الله . وقلوب الصوفية أقرب مناسبة من هذه الناحية ، وهى لهذا قد ظفرت بحظ كبير من العلم فأصبحت بواطنهم اخاذات فعلموا وعلموا، مثلهم فى ذلك كمثل الاخاذ الذى يسقى منه ويزرع منه. وهم بعد هذا ومن اجل هذا جمعوا بين فائدة علم الدراسة وفائدة علم الوراثة بأحكام أساس التقوى . ولما ان صقلت مرايا قلوبهم وصفت صفحات نفوسهم ظهرت لهم الأشياء على حقيقتها وما هيتها . فبانت لهم الدنيا بما فيها من قبح فأعرضوا عنها، وبدت لهم الآخرة بما فيها من حسن فاقبلوا عليها .

وختم المؤلف هذا الباب بملاحظة لها قيمتها وخطرها فى فهم التصوف فهما صحيحاً مستقيما . هذه الملاحظة هى التى يظهرنا فيها على المعنى الذى تدل عليه لفظة الصوفى . فالصوفى عنده بمعنى المقرب . وهذه اللفظة لم يرد ذكرها فى القرآن ولكنها تركت ووضع مكانها لفظة مقرب . ولا يعرف فى بلاد الاسلام هذا الاسم لأهل القرب . وانما يعرف للمترسمين . فهناك نفر كبير من المقربين فى بلاد المغرب وتركستان وما وراء النهر لا يسمى باسم الصوفية لأن افراده لا يتزيون بزى الصوفية ، ومن هنا انتهى مؤلف « عوارف المعارف » الى أنه لا يقصد حين يتكلم عن الصوفية فى كتابه الا المقربين . وهناك ملاحظة ختامية أخرى ذكرها المؤلف فى نهاية هذا الباب، هذه الملاحظة لها قيمتها وخطرها أيضا إذ هى تظهرنا على الفرق بين الصوفى والمتصوف. فالمتصوف هو من تطلع الى مقام المقربين من جملة الابرار مالم يتحقق بحالهم . والصوفى هو من تطلع الى مقام المقربين حيث يتحقق بحالهم . وأما من هو دون المتصوف والصوفى ممن تميز بزى ونسب الى الصوفية أو المتصوفة فهو متشبه

ولنمض الآن الى الباب الثالث حيث يحدثنا السهروردى عن فضيلة علوم الصوفية والاشارة الى انموذج منها . ذكر المؤلف فى مستهل هذا الباب الحديث الشريف الذى امر فيه النبى صلى الله عليه وسلم بطلب العلم والذى جعل فيه طلب العلم فريضة على كل مسلم فقد قال رسول الله : «اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم». ذكر بعد هذا الحديث الشريف آراء العلماء من المتقدمين

واختلافهم فى هذه الاراء حول هذا العلم الذى امر رسول الله بتحصيله وجعل طلبه فريضة على كل مسلم . وقد اختلف القدماء اختلافا قويا حول هذا العلم ماذا عسى أن يكون . فمنهم من قال هو علم الاخلاص ومعرفة آفات النفوس . « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين » . ومنهم من قال هو معرفة الخواطر وتفصيلها ، لأن هذه الخواطر هى مبدأ الفعل واصله ولا يمكن حدوث فعل اذا لم يسبقه خاطر . وذهب فريق الى انه علم الوقت . وانتهى فريق آخر ومنه سهل بن عبدالله الى انه علم الحال اى حكم حال العبد الذى بينه وبين الله تعالى فى دنياه وآخرته . ورأت طائفة انه علم الحلال او انه علم الباطن الذى يستفاد من مصاحبة العلماء الزاهدين والاولياء الصالحين . وطائفة اخرى انه علم البيع والشراء ، والنكاح والطلاق ، او انه علم التوحيد . وقد رأى أبو طالب المكى ان هذا العلم هو علم الفرائض الخمس التى بنى عليها الاسلام

تلك هى الآراء المختلفة التى رآها القدماء فى هذا العلم الذى طلبه فريضة على كل مسلم والتى استعرضها مؤلف (عوارف المعارف) فى شئ من الاسهاب كثير ، وانتهى من هذه الآراء كلها الى أنه أميل مايكون الى رأى أبى طالب المكى ، والى رأى من قال بان العلم الواجب تحصيله على كل مسلم هو علم البيع والشراء ، والنكاح والطلاق ، اذا اراد الدخول فيه . ومن هنا يستخلص السهروردى ان العلم المقصود فى حديث رسول الله انما هو علم الامر والنهى . والمأمور فى علم الامر والنهى هو ما يثاب على فعله ، ومايعاقب على تركه . والنهى فى هذا العلم هو ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه . والنتيجة التى خرج بها المؤلف من هذا الكلام المستفيض هى ان علماء الصوفية عرفوا العلم المفترض على المسلمين فاقاموا دعائم علم الاوامر والنواهى بترسمهم خطى رسول الله فى الاستقامة ، مستعينين على اقامة هذا العلم وتدعيمه بما منحوا من زهد فى الدنيا وحب للآخرة وصفاء فى السرائر ونقاء فى الضمائر ، والاستقامة التى رفع الصوفية لواءها وأثلوا بناءها هى سبيل المجتهد الصادق ، والصوفية حين اكرمهم الله بالنهوض بواجب هذه الاستقامة رزقوا سائر العلوم كعلم الحال ، وعلم القيام ، وعلم الخواطر ، وعلم اليقين ، وعلم الاخلاص ، وعلم النفس ، واخلاقها وشهواتها وما الى غير ذلك من العلوم المتعددة التى ظفر بها الصوفية وحرمها غيرهم من علماء الدنيا . وهذه العلوم كلها ذوقية وجدانية يستعان فى تحصيلها بالذوق والوجدان .

وكم كنت احب ان اقف وقفة قصيرة عند اختلاف القدماء فى أمر هذا العلم المفترض ابين فيها مقدار حظ هذه الآراء من الصواب أو الخطأ . ولكن حسبى ان أوجز لك الآن ما اعتزمت لإيجازه من ابواب الكتاب ايجازا يعطيك صورة مقاربة له ، على ان اتناول مناقشة بعض ما ورد فيه من آراء مناقشة نقدية سوف اعرض لها فى مقال ختامى .

وبعد ان عدد المؤلف انواع العلوم التى ظفر بها الصوفية . قارن بين على الوراثة والدراسة مقارنة تتلخص فى أن علوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة . مثلها فى ذلك كمثل الزبد الذى يستخرج من اللبن الخالص . فلو لم يكن لبن لم يكن زبد . ثم عرض السهروردى الى علوم الاسلام فقال ان للاسلام علوما هى علوم مبانيه . والاسلام بعد الايمان نظر الى مجرد التصديق : ولكن للايمان فروعا بعد التحقق بالاسلام . وهذه الفروع مراتب كعلم اليقين الذى يعطيه لنا الدليل . وعين اليقين وهو ما تعطيه المشاهدة ، وحق اليقين وهو ما حصل من العلم بما اريد به ذلك الشهود . وهذه قد تقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة . وللاسلام فى كل فرع من فروعه علوم ، وبالجملة فانك ترى أن علوم الاسلام هى علوم اللسان ، وان علوم الايمان هى علوم القلوب . ولعلوم القلوب هذه وصفان احدهما عام والآخر خاص . فاما الوصف العام فهو ان علم اليقين يتوصل اليه بالنظر والاستدلال . ومن هنا اشترك فى هذا الوصف كل من علماء الصوفية وغيرهم من علماء الدنيا . واما الوصف الخاص فهو هذه السكينة التى انزلها الله على قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا على ايمانهم . ومن هنا ترى ان علوم الصوفية اشتركت مع علوم غيرهم فى مرتبة اليقين ، وهى المرتبة الاولى ثم امتازت عليها بالمرتبتين الاخريين وهما مرتبة عين اليقين ومرتبة حق اليقين

ويقسم المؤلف الناس طبقات انقسموا اليها بالنسبة الى نفوسهم وقلوبهم وارواحهم . فمنهم من كانت نفسه ظاهرة على قلبه . وهذا الفريق يدعوه الله بالموعظة . ومنهم من كان قلبه ظاهرا على نفسه وهذا يدعوه الله بالحكمة . فاجاب الابرار الدعوة بالموعظة بذكر الجنة والنار . واجاب المقربون الدعوة بالحكمة وهى الدعوة بمنح القرب وصفو المعرفة . ولما وجدوا التلويحات بهذا القرب اجابوا بارواحهم وقلوبهم ونفوسهم . وهم حين يتابعون الاعمال يجيبون بقلوبهم . وحين يتحققون بالاحوال يجيبون بارواحهم . فانت ترى من هذا الفرق بين الصوفية وبين غير الصوفية . فهؤلاء يجيبون بالبعض وأولئك يجيبون بالكل . والصوفية حين يجيبون بالكل يتهيأ لهم بالعلم والمعرفة حظ لم يتهيأ لغيرهم . ومن هنا كانوا اقدر من غيرهم على الوصول الى اليقين الذى لا يحيطه شك . اليقين الذى يكشف لهم عن حقيقة الذات الالهية ويظهرهم على ماهية الاشياء . بحيث ينتهون من هذا كله الى الاتحاد مع الله والفناء فيه اتحادا يضمن لهم السعادة ، وفناء يكفل لهم السلام .

محمد مصطفى حلمى
ماجيستير فى الآداب